الرد على اللورد كرومر

(تتمة الكلام في مسألة المنارف)

ان اللورد يعلم انه استعمل المغالطة في هذا الفصل فعمل محمد علي وعباس واسماعيل ليس حجة على ما يجب اتباعه الآن من حصر تعليم الحكومة في فرنجة عدد معين للوظائف . والانفاق في وقت كانت الحكومة فيه على شفا الافلاس لا يجعل مقياسا لوقت يزيد فيه دخلها على خرجها زيادة عظيمة . ولو كان عمل محمد علي وعباس واسماعيل مما يصح ان يتبع في هذا العصر لكان الواجب على الناس ان يرجعوا القهقرى دائما ولما ساغ لانكلترا ان تدعي ان هذه البلاد محتاجة اليها في تقدمها وارتقائها فانها تقدر بنفسها ان تكون على احسن من زمن اسماعيل فما بال اللورد يمثل ظلمات الماضي الحالكة ثم تمثيل ثم هو يجعلها أساسا يبني عليه سياسته في التعليم ؟

اللورد قد ذم المتفرنجين في كتابه ذما بليغا وبين انهم لا قيمة لهم في نظر الشيخ محمد عبده فكيف لا يذمهم اذا طلب لبلاده تعليما أنفع من هذا التعليم الذي لا يقصد منه الا تكوين المتفرنجين ؟

ومن المغالطة في تقرير اللورد قوله ان ابطال التعليم المجاني كان إلغاء لامتياز جائر لان الذين كانوا يعلمون مجانا هم في الغالب اولاد الاغنياء، فان العدل في ازالة هذا الامتياز انما يوافق المصلحة انما يكون بتحويل الامتياز عن الاغنياء وتخصيصه بالفقراء وما أسهل ذلك على الحكومة لو أرادته القابضون على أزمتها

لو كانت الطريقة التي أزيل بها امتياز أولاد الاغنياء على أولاد الفقراء في التعليم المجاني عادلة لكان من العدل ان يمنع الماء عن الاراضي التي كان الاغنياء يمتازون فيها على الفقراء في الري حتى لا تزرع منها أرض فقير ولا غني فان العلم حياة النفوس كما ان الماء حياة الارض.

لم يكن الشيخ محمد عبده راضيا عن سياسة التعليم بمصر في وقت من الاوقات . ففي زمن توفيق باشا حمل على نظارة المعارف حملة قلمية منكرة في جريدة الحكومة الرسمية ومقالاته في ذلك مثبتة في الجزء الثاني من التاريخ الذي وضعناه له . وقد حمل ذلك الحكومة على الشروع في اصلاح التعليم والتربية ولكن جاءت الثورة العرابية فأوقفت كل عمل وتلاها الاحتلال ونفي الشيخ من البلاد . وبعد عودته رأى سياسة التعليم غير سديدة فقدم لسيد الدولة المحتلة ـ واياك اعني ايها اللورد ـ لائحة [1] فيما يجب اتباعه في التربية والتعليم فوضعت في زوايا الاهمال ،

لعل اللورد لم يدر ان الشيخ كتب في هذه اللائحة ما نصه «المدارس الاميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية ولا التربية الصحيحة » [2] ثم ذكر غرض محمد علي باشا من انشائه لها وما كان حظها من خلفه الى عهد اسماعيل باشا . ولكن الشيخ ذكر ذلك حجة على فقد التربية والمعارف الحقيقية منها فجاء اللورد يذكره من بعده في تقرير ١٩٠٠ ويجعله حجة على بقاء ما كان على ما كان الا المجانية فانه يرى ابطالها بعد انتظام مالية الحكومة وامتلاء خزائنها ! !

مرت الايام على موت هذه اللائحة والشيخ محمد عبده قاض في المحاكم ليس له طريق رسمي الى دعوة الحكومة الى اصلاح التربية والتعليم وقد

«١» ص ٣٦٤ من الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام «٢» ص ٣٢٩ منه

بجرب طريق النصيحة فلم يجده موصلا الى المطلوب فلما صار مفتيا وعضوا في مجلس الشورى حاول ان يجعل مجلس الشورى وسيلة الى غرضه وبرأيه طلب بعض اعضاء الجمعية العمومية سنة ١٩٠٢ ان تعرض قوانين ولوائح التعليم في نظارة المعارف (بروجراماتها ومنشوراتها) على المجلس ولم ينس اللورد تلك المناقشة التي دارت في ذلك بين الشيخ محمد عبده وفخري باشا ناظر المعارف في الجمعية العمومية (وقد بينا ضعف اقوال الناظر يومئذ في المنار ص ١٤٠ و ١٤٩ م ٥)

ثم ان الشيخ محمد عبده اقترح باسم المجلس في سنة ١٩٠٤ ان يعلم تاريخ الاسلام باللغة العربية في المدارس التجهيزية. وقد ذكر في آخر تقرير له بشأن امتحان مدرسة دار المعلمين الناصرية (دار العلوم) ضعف تعليم التوحيد والتفسير والحديث فيها فاذا كان تعلم المعلمين للدين ضعيفا فكيف يكون تعليم هؤلاء المعلمين له؟

نكتفي بهذه المذكرات في بيان غلط اللورد في قوله ان ما كتبه الشيخ محمد عبده لمسيو جرفيل كان يعلم انه لا أصل له فهي تذكر ما ان كان ناسيا ان لها أصلا أصيلا مؤيداً بالبرهان والدليل، ومن العجائب ان يكابر اللورد في هذا مع ما يعلمه من مؤيداته الرسمية وغير الرسمية: فمن ذا كتب ما يعلم انه لا أصل له؟ الشيخ ام اللورد؟ اللورد يعرف ذلك اذا لم يكن السخط قد انساه تلك اللائحة التي قدمت اليه وتلك الحجج المدونة في المحاضر والدواوين الرسمية وكلها ناطقة بأن الشيخ محمد عبده لم يكن راضيا من التعليم والتربية في مدارس الحكومة. فهذا ما نقول في السبب الاول لسخط اللورد على الاستاذ الامام وتغيير كلامه فيه

افضاء الاستاذ الامام لستر بلنت بعيوب الاحتلال

اما السبب الثاني لسخط اللورد على الشيخ وهو ما ظهر له من انه هو الذي لقن مستر بلنت جل ما في كتابه (التاريخ السري للاحتلال) من عيوب ادارة المحتلين بمصر [1] فهو مما يعذر فيه فان هذا مما يغيظ السياسي والحاكم المطلق حقيقة . واي شيء يؤلم الانسان اكثر من بيان عيوبه واظهار سيئاته ؟ ولكن يجب على المؤرخ ان يعذر حافظي الوقائع التاريخية ورواتها ومدونيها . واللورد في كتابه «مصر الحديثة» مؤرخ لاحاكم فكان يجب ان يتذكر ذلك . ثم إذا كان هو في تدوينه لتاريخ مصر لم يتعام القدح في امرائها وعلمائها وعمالها وجميع أهلها بناء على انه مؤرخ يجب عليه إظهار الحقائق — اذا فرضنا ان كل ما كتبه حقائق — فكيف يسخط على من سلك طريقته ومن أعانه على ذلك ؟ اليس من العدل التام ، أن يدين المرء كما يدان ؟

هذا ما يقال من الجهة العامة . ويقال من الجهة الخاصة ان مستر بلنت كان صديقا للشيخ محمد عبده وكان كل منهما يثق بأمانة الآخر وإخلاصه فبأي حق يحجر اللورد على صديقين متجاورين ان يفضي كل منهما الى الآخر بما في نفسه من المسائل العامة او الخاصة ويكاشفه بشعوره لا سيما اذا كان مؤلما له والشاعر الحكيم يقول

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ألا إن منتهى الاستبداد ، واحتقار حرية الافراد ، أن يؤاخذ الناس بما يتناجون به في زوايا بيوتهم ، وما يسرونه لاصدقائهم ومحبيهم ،

ثم ان اللورد يعلم كما يعلم كل عاقل انه لا يخطر في بال الانسان عند

(١) راجع ص ٩٥ من الجزء الماضي

ما يحدث صديقه ان كل ما يقوله سيحفظ ويدون وينشر بين الناس ولذلك ينتقد بعض أهل الرأي على مستر بلنت ذكر مسائل وخواطر حدثه بها الشيخ محمد عبده فنشرها وهي مما لا ينبغي نشره كتعني جمال الدين لو يقتل اسماعيل باشا واستحسان محمد عبده لرأيه . على ان هذه المسألة اهون من الاقالب الذي وضعها الورد كرومر فيه كما سنبينه

بقي علينا وقد بينا الخلاف قولي الورد في الاستاذ الامام وسبب هذا الاختلاف ان نبين الحق فيما لمزه به فنقول انه ينحصر بحسب ما اطلعنا عليه من ترجمة الجرائد في ثلاث مسائل

الاولى وصفه أنه خيالي

قول الورد في الشيخ انه كان مفطورا على الخيال [1] لا يتفق مع قوله فيه من الجهة العملية في الحكومة وغيرها انه كان مصلحا - ومن الجهة السياسية والاجتماعية انه أنشأ في مصر مدرسة فكرية واتباعه اذا نجحوا وسعدوا على ما اختطه لهم من المبادىء المعتدلة فيهم تصل البلاد الى الاستقلال وانهم كالجيرونديين في أحزاب الثورة الفرنسية أي في الاعتدال والعقل ، كما لا يتفق مع قول المستشار القضائي الذي وافقه هو عليه - ومن الجهة العلمية والشرعية انه كان متضلعا من علوم الشرع مع ما به من سعة العقل واستنارة الذهن

ما هي الآراء الخيالية التي كان ينبهها الورد فيتنذر عليها تنفيذها لانها خيالية لا عملية ولعله يعني بها تلك الاصلاحات [2] التي اقترح بها عليه جعل التربية الدينية أساس التعليم في المدارس والكتاتيب وبين له فيها انه لا يصلح حال

(١) راجع ص ٩٤ من الجزء الماضي (٢) تقدمت الاشارة الى هذه الاصلاحات

البلاد المصرية وتكون بمأمن حتى من التعصب وفتنه الا بالتربية الدينية الصحيحة لان الدين الاسلامي رائد الالفة ورسول المحبة . ان كان يعني اللورد باتباع الاستاذ الامام للخيال هذا الرأي الذي أوضحه أتم الايضاح في تلك اللائحة وكان يظهر على لسانه شيء منه في كل فرصة (كاقتراحه في مجلس شورى القوانين تعليم تاريخ الاسلام في المدارس التجهيزية) فلماذا يسيء الظن بدينه وهل تكون هذه الغيرة على الدين لضعف الايمان أو للأدبيين؟

للورد ان يعد طلب التربية الدينية والتعليم الاسلامي امرا خياليا لان سياسته في ذلك مناقضة لاعتقاد الاستاذ الامام فان أحدهما يرى ان الاسلام الحقيقي هو منتهى الكمال البشري كما عرف ذلك عنه القريب والبعيد وصرحت به المجلة الفرنسية[1] ، والآخر يمثل الاسلام بأنه آفة المدنية ومقيد البشر بالقيود التي لا يرتقون مالم يتركوها ويتركوه سدى . ويمكن ان يقال ان تقديمه تلك اللائحة للعميد انكلترا وأمله بأن يقنعه بما فيها هو الامر الخيالي فانه قد بالغ في تحسين الظن بهذا العميد وبدولته حتى أراد ان يستعين بهم على اصلاح شأن الاسلام ، وتخيل انه ربما يصل الى ذلك بالبرهان ، على اننا نحن نعرف السبب في محاولته ذلك وهو انه لما كان منتهى غرضه من حياته الاصلاح الديني بالتربية والتعليم كان يتوسل الى ذلك بكل ما يخطر في البال انه ممكن قائلا « اذا لم ينفع لا يضر »

اذا كانت تلك اللائحة هي دليل اللورد على ان الرجل كان خياليا فلا يصح ان يكون تقريره في اصلاح المحاكم الشرعية خياليا أيضا في نظر اللورد

« ١ » جاء ذلك في بعض اعداد سنة ١٩٠٥ منها — راجع ص ٢٢٨ من مجلد المنار العاشر

فان لم يكن التقرير نفسه خياليا فالجاح كاتبه على اللورد بالسماح بالمال من خزينة الحكومة لتنفيذه هو الخيالي فانه انما سكت عن هذه المطالبة حين قال له اللورد « انني لا أعطي قرشا واحداً للمحاكم الآن » كما اخبرني بذلك الاستاذ الامام في وقته وقال « انه هكذا قال لا أعطي بضمير المتكلم وهكذا يقول » فليقل لنا اللورد أي شيء في ذلك التقرير بعد من الخياليات أو من الاماني والاحلام التي هي غير ممكنة في ذاتها ؟ ولكن يمكن لمن أساء الظن باللورد وحكومته ان يقول انهم لا ينفذون تقريراً فيه اصلاح لمحاكم شرعية وراء اصلاحها اصلاح كبير للبيوت الاسلامية لان من سياسة انكلترا موت الشرع في مصر ولابطال ثقة المسلمين به حتى ان لورد كرومر الذي يعد من خيارهم يرى مطالبته باصلاح المحاكم الشرعية من الخيالات والاوهام ، أو من الاماني والاحلام ، ؟ اذا قال من يسيؤن الظن باللورد وحكومته مثل هذا القول أفلا يكون رمي الشيخ محمد عبده بأنه خيالي رميا للورد وحكومته بما هو شر من ذلك ؟

نعم انه كان للاستاذ الامام ، آمال في حسن مستقبل الاسلام ، قد قد يعدها حتى بعض المسلمين من الاماني والاحلام ، فان منها أنه سينتشر في اوروبا نفسها في يوم من الايام ، ولكن هذه الآمال مما لا أظن ان لورد كرومر قد علم بها اذ لو علم بها لما ظن او خشي ان يكون الشيخ « لا أدريا » فانها امال مبنية على الايمان بصدق وعود القرآن اولا ، وعلى فلسفة دقيقة في طبيعة الاديان وطبائع البشر ثانيا ، فهو قد كان يقول على رءوس الاشهاد في قوله تعالى « ٢٤ : ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى

لهم » الآية « ان هذه الآية لم يأت تأويلها بعد ولا بد ان يأتي ولو بعد حين وان كان بعيدا » فهل تكون هذه الثقة بوعد في القرآن كهذا (قيل انه قد حصل) من رجل لا أدري ؟؟

نحن اعرف بالاستاذ الامام من ورد كرومر فانا نعرف منه كل شيء واللورد لا يعرف منه الا اشياء محدودة تعنيه بعض الاعنى في مصلحة مصر وكان صاحب هذه الحيلة من بطانته ومواضع سره ولا أعرف عنه شيئا يمكن اللورد ان يستدل به على كونه كان مفطورا على الخيال غير ما ذكرت من مطالبة اللورد بالمساعدة على التربية الاسلامية واصلاح المحاكم الشرعية الا ان يكون ذلك توجه همته الى اصلاح الازهر ولكن كل ما تشبث به من الاصلاح كان قليلا وقد نفذ شيء كثير منه كما هو مدون بالتفصيل في كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر في عشر سنين) وما لم يتم منه لم يكن المانع من تمامه كونه خياليا وانما كان له مانع آخر يعرفه اللورد وكثير من الناس وليس هذا المقام محل ذكره

نعم انه كان للاستاذ الامام آمال في الازهر هي أجل وأسمى مما تشبث به من مبادئ الاصلاح التدريجية ـ آمال لها ارتباط قوي بآماله في الاسلام وهي تربية رجال يعرفون حقيقة الاسلام ويقدرون على بيانها والدفاع عنها بالكتابة والخطابة ليكون منهم دعاة يدعون جميع الامم اليه ، ومدافعون جميع طبقات أهله الى ما جهلوا منه ، ولكن العوائق التي اعترضته في طريق الاصلاح حالت دون الدعوة الى هذا المقصد أو الى مقدماته الاولية ، وما أظن ان اللورد كان مطلعا على هذا وإلا لما خطر في باله ان يكون الرجل « لا أدريا »

أما المسائل المتعلقة بالقضاء أو الادارة فمهدي ان آراء الاستاذ الامام فيها كانت تعجب اللورد سواء عمل بها كمدوله عن إلغاء النيابة العمومية عملا برأيه أو لم يعمل بها كمشروع الجنايات الاخير الذي طالت فيه المناقشة بينهما ولكن بعد ان كان اللورد قد أشرب المشروع في قلبه وان أكثر النابغين من رجال القضاء كانوا على رأي الاستاذ الامام في معارضة المشروع

وما ذهب اليه المؤيد في تأويل كلمة اللورد من أن الشيخ كان يحاول القبض على السلطتين فيجعل الامير وعميد الاحتلال معا في يديه فهذا من آراء صاحب المؤيد التي لم تخطر للورد على بال فيما يغلب على ظني

الثانية ظن اللورد انه لاادري

نبز اللورد الاستاذ الامام بلقب « اللاأدري » (*) وهو قد أخذه من ستانلي على أنه لم يجزم به فقد ترجم المؤيد عبارته فيه بكلمة « واخشى » ان يكون كذا وترجمها بعض الجرائد « وأظن » ان يكون كذا . وهذا من الظن الذي قال الله فيه « إن بعض الظن إثم » وقد قال بعض العلماء النابغين من مريدي الاستاذ الامام ان اللورد قال هذه الكلمة لينفرنا من طريقة المرحوم الدينية ولكننا لا نترك ما عندنا من اليقين فيه لاجل ظن لورد كرومر

اما أنا فأقول ان قاعدة ستانلي التي استنبط منها اللورد كلمته هي من المسلمات عندهم فينا وهي « ان المسلم من الطبقة العليا لا بد ان يكون احد

(*) راجع صفحة ٩٤ من الجزء الماضي

اثنين متعصبا او ملحدا في سره » وعندنا قاعدة مثلها كنت اسمعها وانا تلميذ مبتدي وهي « ان النصراني المتعلم ملحدا لا دين له فان تعصب لقومه وأهل دينه فانما يتعصب لهم تعصبا جنسيا » وما كنا نسمعه من آبائنا وبعض مشايخنا : « ان ما يمتاز به الاسلام على النصرانية المعروفة ان المسلم يزداد قوة في الاسلام كلما ازداد سعة في العلم وان النصراني اذا تعلم العلوم سرق من الدين ولذلك كانت مدنية المسلمين وعلومهم في حياة وعز أيام كان الاسلام حيا في نفوسهم في أول نشأتهم ولم يصر للنصارى علم ولا مدنية الا بعد ضعف الدين وزعزعته عندهم » فالعلم والعلل تتشابه في حكم بعضها على بعض

قد ذكرنا دليل المسلمين على قاعدتهم من الجهة النظرية ويؤيدونه من الجهة العملية بحال من يعرفون من النصارى المجاهرين بالالحاد وكثيرا ما يرى الكاتب النصراني يعتقد بطلان الاسلام اعتقادا تقليديا ان كان متدينا واعتقادا نظريا ان كان ملحدا كان للملحد منهم ان يظن بهذا الدليل النظري ان المسلم العاقل المطلع على العلوم والفلسفة لا بد ان يكون ملحدا ولا يسمون من المسلمين المتفرنجين من يجاهرون اسلامهم بالكفر ويسكرون معهم في نهار رمضان فيؤيدون دليلهم بالحس ولا يعلمون ان هؤلاء الذين يظنون انهم قد ألحدوا بعد اسلام لم يعرفوا يوما ما من الاسلام شيئا

قد عرفت رجلا من فضلاء الانكليز في التربية العالية فيهم وجرى بيني وبينه مناظرات كثيرة في المسائل الدينية فكان كلما سمع مني جوابا عن شبهة من الشبه التي يوردها على الدين مطلقا أو على الاسلام خاصة يقول ان ما تقوله معقول ولكنه فلسفة لا دين وما أظن ان علماء الازهر

يقولون به لو سمعوا هذا السؤال » . وقال لي مرة « ان كنت الاسلام ما تقوله فانا مسلم » . وقال لي مرة بعد كلام قلته في الاسلام « اني أنا اعتقد هذا فاما ان اكون مسلما واما ان تكون كافرا » وقال لي مرة « ما اظن ان احداً يوافقك على هذا الاعتقاد في الدين الا الشيخ محمد عبده » ولا يبعد ان يكون ظنه فينا كظن اللورد في الاستاذ الامام . وقد ذكرت في المنار سؤاله اياي في رمضان : هل تصوم ؟ وعن جوابي له وما ذكرته له من حكمة الصيام واعجابه به

وقد دعاني غير واحد من فضلاء النصارى للغداء في رمضان وعرضوا علي القهوة سرارا كثيرة فكنت أقول متعجبا أو نسيتم اننا في رمضان؟ فيقولون او أنت تصوم أيضا؟ فاقول : أي شيء يبيح لي الفطر وليست مريضا ولا على سفر ؟

ولكن اذا كان الملحد من النصارى هو الذي يظن ان المسلم العاقل لا بد ان يكون اسلامه ظاهريا وهو يسر الالحاد في قلبه فهل اللورد ملحد ام هو مقلد لسائر في قاعدته من غير دليل ولا فكر ؟ وكيف يتفق هذا مع شهادته للشيخ محمد بيرم بالايمان والعقل جميعا ؟

قال اللورد بعد ما ذكر أنه يخشى ان يكون الشيخ محمد عبده لا أدريا « وان كان ليس من هذه النسبة » فقوله هذا يشعر بأنه ذكر أمامه ما يدل على انه يظن فيه هذا الظن تصريحا او تلويحا فاستاء وامتعض وتبرأ من ذلك وأنكره وكيف لا ينكره على اللورد مستاء وقد كان دينه اعز شيء عليه وهو الذي جعله لا يخاف في الحق لومة لائم وهو الذي جعل السياسة مأيوسا منها عنده فكان جل قصده من معرفة رجالها ومدارتهم الاستعانة بهم على خدمة العلم والدين

من جهة وخدمة مصر من جهة أخرى فكان يتردد على الامير ليستعين به على اصلاح الازهر ويختلف الى اللورد ليستعين به على اصلاح المحاكم والمعارف وغير ذلك من المصالح التي شهد له اللورد بالوطنية الصادقة لسعيه لديه فيها، وكان يستجديهما معا لمصر وللاسلام وقد اعطى كل منهما قليلا وأكدى . ولا عجب اذا جاءت كلمة اللورد في دين الاستاذ الامام غثة باردة تضاءل في علمه بال فانها عبارة عن ظن لم يستيقنه ، في موضوع لم يعرفه ،

الثالثة استحسان قتل اسماعيل باشا

نقل اللورد عن كتاب التاريخ السري للاحتلال ان السيد جمال الدين كاشف الشيخ محمد عبده بفكرة خطرت له وهي قتل اسماعيل باشا فقد سرروه على « الكبري » اذا كان يمر كل يوم عليه وان الشيخ محمدا استحسن ذلك ولكن الامر لم يتجاوز الكلام بينهما [1] اي لم يكاشفا به أحدا لاعتقادهما انهما لا يجدان من يتجرأ على ذلك

كبر اللورد هذه المسألة وعظمها ووجه قوة عقله المنطقي الاوربي الانكليزي للاستنتاج منها فكانت نتيجته « ان العالم المتمدن كله ينظر بعد هذا الى الوطنيين شزرا ! ! ويحتقر بالاكثر أولئك الفلاسفة الذين لا يتأخرون عن تعزيز مقاصدهم السياسية بمثل ارتكاب القتل »

ربما يسهل على اضعف الشرقيين الذين يقول اللورد عنهم ان عقولهم غير منطقية فهي ضعيفة الاستنتاج والاستنباط بل على أضعف المصريين الذين يعدهم من اضعف الشرقيين عقولا واستنتاجا ان يفندوا أمثال هذه النتائج التي استخرجها ذلك العقل الغربي المنطقي الكبير . فلو سألنا أحد

(١) راجع ٦٦ من الجزء الماضي

لابسي الجلاليب الزرقاء من فلاحي مصر والفيلسوف سبنسر والفيلسوف أرسطو: هل تقولون ان تفكر رجل غريب كالسيد جمال الدين الافغاني في قتل أمير ظالم كاسماعيل باشا واستحسان تلميذه كمحمد عبده المصري لفكرته وهو شاب في سن الطلب والتحصيل ينتج وجوب احتقار العالم المتمدن لهما وللوطنيين المصريين دائما الان تلاميذهم استحسن من زهاء ثلاثين سنة قتل أمير خرب بلاده ومهد للاجانب احتلالها ؟ ؟ لو سئل الثلاثة هذا السؤال لاجاب الفلاح المصري واشهر الفلاسفة المتقدمين وهو أرسطو مؤسس علم المنطق واشهر الفلاسفة المتاخرين وهو سبنسر بجواب واحد وهو ان الوطنيين لا يلحقهم ذنب ولا لوم من تلك الفكرة ان فرضنا انها فكرة تافي المدنية ، وان المنطق يتبرأ من يقول بمثل هذه النتيجة

وفد السيد جمال الدين على مصر في سنة ١٢٨٦ وكان الشيخ محمد عبده في سن العشرين (لانه ولد سنة ١٢٦٦) وكان همه من حياته ايجاد حكومة اسلامية عزيزة قوية فاستمال الناس اليه بالعلم والفلسفة حتى اذا ما اجتمعوا حوله بث فيهم افكاره السياسية بطريق تعليم الكتابة والخطابة حتى كون لنفسه حزبا له ارتباط بولي عهد الخديوية (توفيق باشا) وكان اسماعيل باشا هو العقبة الكؤود في طريق الاصلاح المطلوب له فهل يعد من الغريب عند الامم المدنية ان يتمنى ازالتها او يفكر فيها فينظر العالم المتمدن الى جميع الوطنيين المصريين الآن النظر الشزر لان من علمهم السياسة وطلب الاصلاح فكر في ذلك منذ ثلاثين سنة ؟ ؟

يالله من هذا العالم المدني الذي لم يفكر في مثل هذا قط ؟ ما هو وابن هو ؟ أليس هو العالم الاوربي الذي قتل من الملوك والرؤساء في بلاده

واحدا وعشرين ملكا ورئيسا في مدة لا تتجاوز قرنا من الزمان (*
ونعني بالرؤساء وؤساء الجمهوريات الذين تعتبرهم اقل من تبعة الملوك

ان خطور الذنب بالبال ومكاشفة بعض البطانة به قد يكون غنيا لا يصل الى درجة العزم، وقد يعزم الانسان على الشيء حتى اذا امامه عباشرته راجع نفسه وثنى عزمه فرجع عنه نادما، فليت شعري ماذا كان يكون حكم لورد كرومر على جمال الدين ومحمد عبده وجميع الوطنيين المصريين الذين يرومون استقلال بلادهم لو وفق السيد جمال الدين يومئذ الى تنفيذ ذلك الخاطر؟؟

اما كون السيد جمال الدين كان يعمل في مصر عملا سياسيا فهذا مما لا يجهله لورد كرومر ولا أحد من ساسة انكلترا وفرنسا الواقفين على احوال مصر الاخيرة، وهم يعلمون انه اذا ترك السعي لقتل اسماعيل باشا فانه قد سعى لعزله

قال الاستاذ الامام في كتاب تاريخ الثورة العرابية الذي عهد اليه بتأليفه الامير عباس حلمي الثاني في سياق الكلام على السعي في عزل اسماعيل باشا وذكر ارسال فرنسا موسيو تريكو مأمورا فوق العادة ليتعاون مع وكيل انكلترا بمصر على ذلك ما نصه

«ولكن كان الناس كافة في شوق الى رؤيته (اي اسماعيل) بعيدا عن كرسي الخديوية، وطلاب الحرية من الاهالي كانوا يترددون على رئيس الوزارة المصرية يظهرون له الميل الى جناب الخديو السابق توفيق باشا رحمه الله وكانت بينه وبين السيد جمال الدين مكالمات ومخابرات في هذا الامر فسمى هو والكثير من الاعيان عند شريف باشا حتى يقنع الخديو

(*) اذكر ذلك في ص ٢٥٥ من جزء المقتطف الرابع الصادر في ابريل الماضي

الاسبق بوجوب التنازل (عن الخديوية) وقد فعل فأشار عليه بأن رفض الطلب لا يفيد وان الدولتين لا بد ان تتالا ما تطلبان عاجلا او آجلا والفكر في الحرب رأي طائش فان الناس عموما في انحراف عنه فاذا حمل حرب خذله الجيش في أول واقعة وكانت عاقبة ذلك أشنع، وان أمس شيء بالصواب أن يحوّل الامر على السلطان

«ثم ذهب وفد من المصريين وهم السيد جمال الدين الى وكيل دولة فرنسا وأبانوا له أن في مصر حزبا وطنيا يطلب الاصلاح ويسعى اليه وأن الاصلاح المطلوب لمصر لا يتم الا على يد ولي العهد توفيق باشا وانتشر ذلك في القاهرة وغيرها وتناقلته الجرائد وهي أول مرة عرف فيها اسم «الحزب الوطني الحر» اه المراد منه

ان لورد كرومر يعلم هذا ويعلم ان اسماعيل باشا لم يكن اشد من اولئك الملوك الذين قتلهم العالم المتمدن وآخرهم ملك البرتغال بل ولا من اولئك الذين ثاروا عليهم وقتلوهم بمحاكمة او بغير محاكمة ومنهم شارل الاول ملك الانكليز الذي قامت في وجهه الثورة الاهلية المشهورة وانتهت بقتله . وان اغتيال ملك او أمير مخرب للبلاد ، ظالم للعباد ، مضيع للملك ، مهلك للحرث والنسل ، أهون في نظر الفيلسوف من القيام بثورة عليه تسفك فيها دماء الالوف الكثيرة من الشعب ، ثم يقتل الملك بعد ذلك بمحاكمة صورية او حقيقية ان لم يقتل اغتيالا

ان ما شرحه لورد كرمر في تاريخ «مصر الحديثة» من فظائع اسماعيل باشا كاف في بيان كونه أسوأ حالا من الملوك الاوربيين الذين ثارت عليهم رعيتهم بتدبير فلاسفتهم وعقلائهم فأين من اسماعيل باشا لويس السادس عشر وشارل الاول

قد مثل الاستاذ الامام في تاريخ الثورة العرابية حالة مصر التي تركها عليها اسماعيل باشا تمثيلا تلطف فيه واستعمل الرأفة التامة في الحكم لانه كتب ذلك لحفيده الامير المثال كتابة حاول فيها الاعلام مع توقي الايلام فقال:

﴿ شؤون البلاد المصرية في شهر رجب سنة ١٢٩٦ ﴾

« تولى الجناب الخديو السابق توفيق باشا بعد ان تداخل دولتا فرنسا وانكلترا في شؤون البلاد المالية وارتبطت الحكومة معهما بعقود ووعود عدت قوانين وأصولا يجب احترامها

— وبعد أن كان قد أفضى الامر الى تعيين وزيرين أحدهما انكليزي للمالية والآخر فرنساوي للاشغال العمومية في أواخر عهد اسماعيل باشا

— وبعد ان كادت أحكام المحاكم المختلطة تؤدي بتنفيذها الى اشهار افلاس الحكومة ، وأدت بالفعل الى انتزاع املاك كثير من ذوي الثروة من الاهلين

— وبعد أن كان موظفو الحكومة من أية طبقة كانوا في اضطراب من حالتهم المعاشية لتعوّد الحكومة على تأخير دفع المرتبات لاربابها اشهرا

— وبعد ان صار رجال الحكومة في درجة من الغفلة عن مصالح البلاد الى حد انهم كانوا لا يفهمون للوظائف معنى الا انها وسيلة لتحصيل النقود من الاهالي بأية طريقة ليُدس منها شيء في جيوب المباشرين للتحصيل ويرسل الباقي الى خزائن الخديو او الى صناديق بعض المحتفين به والمقربين اليه

وبعد ان صارت الجندية في البلاد صورة لا يعقد بها دفاع ولا حماية

وإنما يراد بها الظهور بعظمة الملك فلم يكن فيها تربية عسكرية ولا تدريب حربي وكثيرا ما كانت تستعمل في حفر الترع وإقامة الجسور للمنافع العامة او الخاصة وكان المرجع في بعض الحروب الى ضباط من الاجانب كانوا أركان حربها، وعليهم المعوّل في أغلب شؤونها

ـ وبعد ان فتح على الاهالي أنفسهم باب الاسراف والرفه في المعيشة تقليداً للمقربين من مسند الخديوية ومن يليهم وذلك قبل ان يعرفوا لنفقاتهم ميزانا صحيحا يعادلون به بين ما بأيديهم من الاموال وما ينفقون في اللذات

ـ وبعد أن نشأ عن هذا وعن شره الحكام في التحصيل وعدم رعايتهم لما عليه الاهالي من غنى وفقر واستعمالهم اشد العقوبات في سلب ما بأيديهم أن اضطر الاهالي الى التداين بالربا الفاحش حتى كان صاحب الارض يأخذ من المرابي المئة بمئة في ثلاثة أشهر ولم يكن يرى في ذلك عيبا ولا يخشى عاقبة فان أمامه القدوة العظمى وهي الحكومة تستلف النقود بمبالغ من الفائدة لا يمكن لعقل عاقل تصديقها لو نسبت الى حكومة ما لو لم يرها بعينه

ـ وبعد ان صار للمرابين بذلك سلطة على الاهلين وطمع في اموالهم يفوق سلطة الحكام وطمعهم

وبعد ان تعود كثير من الذين يسومهم اكابر البلاد وأعيانها، أو ذوات الحكومة وأمراءها، على أن ينالوا من الحكومة ما يشتهون في الوقت الذي يريدون متى صادفوا مكانا من رضى الخديو او بعض

المقربين اليه فكانوا يسخرون الاهالي في أعمالهم الخاصة ويتصرفون فيهم كما يتصرف الراعي في ماشيته بدون ان يراعي أحد منهم في ذلك نظاما ولا عدلا ولا استبقاء منفعة من يوم الى آخر وتعود الاهالي على الشكوى الى الله وحده من ضيق الحال وخمود المزائم وانطفاء مصابيح الرشد في جميع الطبقات

ـ وبعد ان صار كل واحد من الناس في خوف دائم واضطراب لا يهدأ على نفسه وما بيده ، اذا تكلم تتمتم في كلامه ، واذا قصد امراً خطا اليه على غير هدى ، يتلفت وراءه خوف مفاجأته بما يكره

ـ وبعد ان كانت الثقة قد شملت جميع الطبقات الدنيا والوسطى حتى خيف القحط العام لو استمرت الحكومة على سيرها الماضي سنة أخرى من الزمان

ـ وبعد أن صارت عيون الناس بأسرهم شاخصة الى ما عساه ينزل من السماء ليدهم بالمعونة على الخروج مما هم فيه

ـ هذه كانت حالة البلاد عند ما تولى المرحوم توفيق باشا مسند الخديوية فيها . هذه كانت شدائد مهلكة ، وظلمات حالكة ، يضل فيها الرشيد ، ويتعثر فيها العزم الشديد ، »اه المراد مما كتبه هناك

وقد استطرد منه الى بيان اعتقاد أهل مصر في حكامهم الى ذلك العهد ثم الى بيان ما أحدثه السيد جمال الدين من الانقلاب في الافكار وقد سبقت الاشارة اليه ـ وكان كل ذلك من مبادي الحوادث العرابية ومقدماتها ، وان شئت قلت من علمها وأسبابها ، فكل ما كتبه عن سوء حال البلاد في حكم اسماعيل لم يكتب على سبيل القصد ولم يرد منه الا استقصاء في بيان الحال ، فضلا

عن المبالغة في التقبيح والتنفير ، فهل يلام من له عقل يفكر ، وقلب يشعر ، اذا مقت ذلك الامير ، وتمنى لو ينتاله احد من اولئك المظلومين المقهورين او المستضعفين تمنى من تمنى ذلك ؟؟

الشيخ محمد عبده وموقف حزبه بمصر

وهنالك مسألة أخرى عدها بعض الناس قدحا من اللورد في الشيخ محمد عبده وحزبه وهي قوله فيهم انهم « أدنى من المسلم المحافظ في اسلامهم وأدنى من المصري المتغالي في تمدنه » (١) والحق ان هذه العبارة لا ينتقد منها الا لفظها ففي مدح كتب في حال استياء واستعاض فجاء شبيها بالذم اذ توهم انهم دون الفريقين في علم او فضل ومعناها الحقيقي ان هؤلاء القوم وسط بين طرفين مذمومين طرف المتشددين في المحافظة على الرسوم والتقاليد القديمة باسم الدين وطرف المتغالين في تقليد الافرنج الذين اضاعوا دينهم وثروتهم في ذلك وقد بالغ اللورد في ذمهم . ولم يرد اللورد بهذه العبارة الا ما اوضحه في تقريره سنة ١٩٠٥ من ان حزب الشيخ محمد عبده هو الحزب المعتدل في مصر الذي يناط بنجاحه استقلال هذه البلاد الاستقلال الحقيقي فلا فرق بين عبارته في التقرير وعبارته في التاريخ في بيان المراد الا ان احداهما كتبت في حال رضى فتلت المعنى مضيئا واضحا والثانية كتبت في حال السخط فتشي المعنى فيها غاشية من ظلمة الابهام

وقد زل قلم اللورد بسوء تأثير وجدان السخط زلة اشنع من هذه لمثله اذا ذكرها يعرق من الخجل وهي انه ذكر في التقرير ان توفيق باشا صفح

(١) راجع ص ٩٥ من الجزء الماضي

عن الشيخ محمد عبده « طبقا لما اتصف به من الحلم وكرم الخلق »[١] وقال في كتاب مصر الحديثة انه عفا عنه « بما فطر عليه من مكارم الاخلاق واتقيادا لتشديد الانكليز عليه في ذلك »[٢] فزيادة انقياده لتشديد الانكليز تقضت ما قبلها الموافق لما ذكر في التقرير فان العفو اذا كان عن انقياد لتشديد الانكليز لا يكون عن حلم وكرم خلق والا فلا أثر لتشديد الانكليز بل لم يكن هناك حاجة اليه

فاللورد جدير بأن يخجل من هذه العبارة اذا قابلها بعبارة تقريره في المسألة لانها جعلت كلامه متناقضا او متعارضا وأبانت انه يحابي في المدح عند الرضى فانه جعل عفو توفيق باشا عن الشيخ محمد عبده عند رضاه عنهما معا كرما وحلما وكرم خلق فلما سخط من الثاني جعل ذلك العفو ناشئا عن تشديد من الانكليز في طلبه لا عن مجرد الطلب فيقال انه طلب وافق حلم توفيق وكرم خلقه وانما أراد اللورد بذلك أن يظهر فضله عليه ، ليثبت أنه أساء الى من أحسن اليه ، بما أظهر من عيوب سياسة الاحتلال وادارته لمستر بلنت . والمؤرخ المحابي متهم لا يوثق بمدحه لمن يرضى عنه ، ولا بذمه لمن يسخط عليه ، وبناء على هذه القاعدة نقول ان ثناء اللورد على الشيخ محمد عبده في كتاب مصر الحديثة يعد بما فيه من الشوائب منتهى الفضل وشهادة اللورد به شهادة جدير بالاعتبار والايثار وهو يلخص في هذه الكلمات

(١) انه احسن العمل في القضاء وأدى الامانة حقها

(٢) كان واسع الرأي

---

(١) راجع ص ٩٠ من الجزء الماضي (٢) ص ٩٥

(٣) كان على علم ونباهة

(٤) كان عدوا للخديوين والباشوات غير الصالحين

(٥) كان وطنيا حقيقيا ومن مصلحة الوطنية المصرية ان يكثر امثاله

(٦) انه أسس في مصر مدرسة فكرية

(٧) ان له في مصر حزبا معتدلا يجمع بين أصول الاسلام والمدنية

(٨) ان أتباعه هم حلفاء المصلح الاوربي الطيبيون الجديرون بمساعدته

(٩) إن له برجراما لجعل مصر مستقلة استقلالا ذاتيا حقيقيا

(١٠) ان تقدم اتباعه خير رجاء له في تنفيذ برجرامه هذا

فحسبنا من اللورد الشهادة بهذه العشر ولا يضرنا معها ظنه انه كان لا أدريا ، ولا جزمه بأنه كان خياليا ، ولا إبهام عبارته أن حزبه الوسط دون كل من الطرفين الذي هو وسط بينهما

نعم كان حزب الشيخ محمد عبده معه ولا يزال من بعده وسطا بين المحافظين الجامدين ، والمتفرنجين المقلدين ، ومنهم من هو أقرب الى هؤلاء ومن هو اقرب الى أولئك ، اما الشيخ نفسه فقد كان من آياته أن أذكياء كل فريق من المتفرنجين والجامدين يجلونه مع احتقار كل منهما للآخر . وقد عرف أصحاب المقطم والمقتطف من كنه هذه المزية ما لم يعرفه اللورد او صرحوا بما لم يصرح هو به اذ قالوا في تأبينه بالمقطم (ع ٤٩٥٢) مانصه [1] :

« فأول مزية امتاز بها الفقيد انه كان في مقدمة كل فريق من الفريقين اللذين انقسم اليهما المصريون في هذا العصر : فقد كان علما يهتدي بنور علمه فريق المحافظين الذين لا يروقهم غير ما جرى عليه

« ١ » ص ٤٥ من الجزء الثالث من تاريخ الاستاذ الامام

المتقدمون كالعلماء والائمة وطلبة العلوم الدينية واللغوية ومن جرى مجراهم . وكان قائدا للآراء ومديرا للافكار عند الفريق الذي جعل شعاره التقدم والارتقاء من أبناء هذا العصر الذين يرون ان القديم لا ينفي عن الحديث وان من لا يتقدم يتأخر والسكون المطلق محال . وتقول ولا نخشى في الحق لومة لائم ان التقييد فاق الاقران كلهم في هذه المزية حتى انفرد فيها او كاد » الخ

وكتبوا في الجزء الثامن من المجلد الثلاثين لمجلة المقتطف ما نصه (١) :

« وكان ذكي الفؤاد بالطبع قوي الحجة حسن المحاضرة لا يخاف في الحق لومة لائم ولا يتهيب الكبراء والعظماء لمجرد ما هم فيه او ما أدركوه من رفعة المقام فاستطاع ان يكون علما يهتدي بنور علمه المحافظون الذين لا يروقهم الا ما جرى عليه المتقدمون كاكثر العلماء وطلبة العلوم الدينية واللغوية ومن جرى مجراهم لانه كان ثقة فيهم . وعضدا قويا لابناء هذا العصر الذين استناروا بالعلوم الحديثة والآراء الجديدة ، ومرشدا صادقا للذين يطلبون الاستنارة بها والسير في سبيلها » الخ

هذا رأي أصحاب المقطم والمقتطف سقناه الى الورد لان مثبتيه غير متهمين عند الورد بقلة المعرفة ولا بالتشيع للشيخ محمد عبده

واذا أراد الورد ان يعرف مكان الاستاذ الامام من نفوس أرقى الطائفتين (المحافظين والمتفرنجين) فليقرأ ما أثنى به الشيخ احمد ابو خطوة أرقى الازهريين علما وفهما وقلم بك أمين أرقى المتعلمين في أوربا والورد يشهد بنبوغه وقد أثنى عليه في خطبته التي ودع بها مصر ذلك الوداع المشهور

(١) ص ٣ من التاريخ المذكور

قال القاضي الشرعي الشيخ أبو خطوة في ابتداء كلامه «اجتمعنا اليوم هنا حوالي هذا القبر الجليل المؤثر الذي انتهى اليه أمر الامام الكبير الاستاذ الشيخ محمد عبده» الخ ثم فصل اصلاحه للازهر وللمحاكم الشرعية تفصيلا

وقال القاضي الاهلي قاسم بك في ابتداء كلامه «مهما قلبنا النظر ودققنا في البحث والتفتيش فلا نجد في امتنا من يعوض علينا ما خسرناه بفقد استاذنا الشيخ محمد عبده» وقال انه «وصل الى أسمى مقام يمكن ان يناله انسان في هذه الحياة .... مقام الامامة بأوسع معناها تركه الشيخ محمد عبده ولا يوجد في مصر واحد يجرأ على ان يدعي فيه استحقاقا بعده» ثم قال:

«سادتي: ان كل نفس بشرية لها نصيب من الجمال والقبح، والجمال المطلق لا يوجد في هذا العالم ولكن بعض النفوس الممتازة تقرب من الكمال أكثر من غيرها فتنمو زهرة الجمال فيها نموا عجيبا وتتكاثر فروعها وتمتد طولا وعرضا ولا تترك محلا لسواها فيضعف ويذبل كل نبات خبيث بجانبها. ومن هذا القسم الممتاز كانت نفس امامنا العزيز. نفس خلقت على أحسن شكل، زينها صاحبها بالفضائل حتى صارت مثالا في الجمال يجب ان نضعه دائما أمامنا لنتعلم منه» كذا وكذا وذكر بعض مزايا الامام ثم قال «ونتعلم منها أيضا مبلغ ارتقاء الخلق في انسان اجهد نفسه وروضها حتى أوصلها الى اقصى ما تتصل اليه نفس بشرية من الجمال والكمال»

وبهذا نكتفي في هذه المسألة التي يعرف منها طريق المورد في الكلام عن رجالنا وننتقل منها الى المقصد الاهم وهو كلامه في الاسلام والمسلمين فنقول